

العامل الديني في مقاومة الاستعمار الفرنسي لبلاد القبائل إلى غاية 1857

الأستاذ محمد سي يوسف
أستاذ التاريخ بجامعة تيزي وزو

مكانة الزاوية في بلاد جرجرة :

ابتداء من القرن العاشر الهجري.

ظهر نوع آخر من هذه المعاهد لا هي زاوية ولا هي رباط، تعرف في بلاد القبائل باسم "ثمعمرت" وهي عبارة عن معاهد لتعليم القرآن وحفظه، أو لدراسة العلوم المختلفة. وقد انتشر هذا النوع من الزوايا ابتداء من القرن العاشر الهجري.

وكانت لهذه "المعمرات" أحباس هامة، وقوانين داخلية انتشرت في معظم أنحاء بلاد القبائل، وهي تمتاز عن نظم الزاوية، إذ الزاوية في الغالب تخضع لتصرف شيخ الطريقة أو مقدميه.

أما هذه المعاهد فإن لها قوانين محكمة، وإذا وقع خلل أو سوء فهم في تطبيق تلك القوانين أو تداخل السلطات، فإن قدماء

عرفت الزاوية في أوائل القرن الثامن الهجري، وكانت تطلق على مكان معد للعبادة، كالمسجد، وتشتمل على المرافق للطلبة المجاورين بها، وإيوائها للواردين عليها وعابري السبيل.

وقيل إنها عرفت في المغرب بعد القرن الخامس الهجري. وسميت في بادئ أمرها بدار الكرامة . ثم عرفت الزاوية بعد ذلك بأنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية، يجتمع فيها مريدوهم لذكر الأوراد. كما كانت تتخذ مأوى لطلبة القرآن والعلم إلى جانب بقية الزوار الذين يقصدونها للاستفتاء والصلح بين المتخاصمين . وكثر هذا النوع من الزوايا

ترى أن من أهم واجباتها، تدعيم الإسلام وتعاليمه، والمحافظة عليه، ومحاربة كل من تسول له نفسه المساس به.

وانطلاقاً من هذه الاعتبارات، أخذت الزاوية في بلاد القبائل المكانة اللائقة بها، وهي محاربة الدخيل ونشر الثقافة وتعاليم الدين، وحماية هذا الخير. خصوصاً وأن فرنسا أرادت أن تنشر في هذه المنطقة الديانة المسيحية لتربطها بنفسها روحياً، والارتباط الروحي كما هو معلوم أقوى من الارتباط المادي، وهكذا عملت على نشر المسيحية بمجرد أن وضعت أقدامها هناك، وذلك عن طريق إيواء اليتامى والفقراء في المنازل التي أقامها المبشرون خصيصاً لهذا الغرض. كما بنت مدارس لتعليم اللغة الفرنسية والديانة المسيحية. ومن أبرز هذه المدارس تلك التي ظهرت في بني يني وعين الحمام وتيزي وزو...

وسيتضح لفرنسا في الأخير أنها لم تكن سياستها شيئاً، خصوصاً عندما حاولت نشر المسيحية في هذه المنطقة، حتى تصبح في المستقبل في خدمة الدولة الفرنسية. وقد صرح الكردينال لافيغري Lavegerie نفسه بعد 1870 عندما تأكد من فشل

المتخرجين منها هم الذين يرجع إليهم الأمر، فيجتمعون لحل المشاكل. وكثيراً ما كانت تشد أزر الرباط في وقت الحرب.

لقد قامت الزاوية والمعصرة في بلاد القبائل بمحاربة الاستعمار منذ وصوله إلى المنطقة، ولم يدخر الزعماء الروحيون لهذه المنطقة جهداً في اغتنام كل فرصة لإعلاء صوتهم ضد الوجود الفرنسي، على الرغم من إمكاناتهم المادية البسيطة، إلا أن عزيمتهم كانت قوية ومعنوياتهم مرتفعة جداً.

نظراً للمكانة المرموقة التي تحتلها هذه المراكز التعليمية في نفوس السكان، ونظراً للاحترام الذي يحظى به في العادة أصحاب هذه المراكز، بل المتعلمون عموماً، فإن نشر أي دعوة عن طريق الزوايا تجد صدى كبيراً وسريعاً، لأنها هي المثل الأعلى بالنسبة للسكان. ولهذا لا تتعجب إذا تحمسوا لتلبية نداء زعمائهم للجهاد من أجل محاربة العدو الذي جاءهم يسلب أراضيهم. والأخطر من هذا أنه جاءهم باسم الكنيسة أي لمحاربتهم دينياً وفكرياً واقتصادياً.

وهنا يظهر الدور القيادي للزاوية التي

نظر السكان، أولياء الله على الأرض، الحاملين لكلمته، العاملين على مواصلة نشر دينه، والمتقنين لأبنائهم. لأن المراكز التعليمية الموجودة كانت بيدهم. وهم المرجع في كل القضايا الدينية والروحية، وحتى الاجتماعية.

فسلطة هؤلاء المرابطين لم تكن مفروضة على السكان، وإنما هم الذين اختاروها بسبب عوامل تاريخية عديدة. إلا أن هؤلاء من جهة أخرى وجدوا تدعيماً من طرف السلطنة العثمانية خلال حكمها. فيقول بواي Boyer: "في بلاد القبائل، حيث يلعب المرابطون دوراً مهماً لا يجد من سلطتهم إلا كثرة عددهم. وقد وجد فيهم الأتراك أداة مكتملة لسياستهم الاقتصادية. فهم لم يكونوا محسنين لهم فقط، بل كانوا زيادة على ذلك يقدمون لهم الهدايا، فيرسلون صدقاتهم إلى الزوايا، ويشيدون لهم الأضرحة، كما يشيدون لهم المساجد ...

وفي وادي الساحل كانت القبائل الخاضعة للحكم العثماني تدفع "الأعشار" أي عشر، بأمر من العثمانيين إلى بعض عائلات المرابطين في جرجرة كعائلة سي

هذه السياسة بقوله: "إننا خسرنا في بلاد القبائل ما حققناه في لبنان".

ولتحقيق هذا الغرض، كانت فرنسا ترى أنه لا بد من إزالة العائق الأساسي أمامها والمتمثل في بعض الزوايا والشيخوخ الذين يملكون السلطة الروحية، فيشير إسماعيل أوربان Urbain بأنه: "من السهل الاعتراف بأن أحد أكبر العوائق التي سنجدها أمامنا عندما نعمل على غرس السلطة الفرنسية في بلاد جرجرة هي وجود عدد كبير من الزوايا والمرابطين الذين يفهمون بأن دورهم هذا سيزول في اليوم الذي يقام فيه حكم مركزي في هذه البلاد، وهذا الحكم هو الذي سيقوم بدور الحكم في المنازعات بين القرى والقبائل، ولهذا فهو هؤلاء سيعلمون بدون شك على منع أو عرقلة السلم وتعكيره عندما يستتب أمره".

إلا أن هذا الكاتب وقع في خطأ كبير، وهو اعتقاده بأن العلاقة الوحيدة بين هؤلاء المرابطين والسكان هي علاقة الحاكم بالمحكوم. وهي في الحقيقة أكبر من هذه العلاقة وأمتن وأعمق. لأنها علاقة روحية عميقة الجذور، فهو هؤلاء يمثلون في

علي شريف أورابح، وهو يضمن الأمن في المنطقة".

ومن أشهر الزوايا في بلاد القبائل :

- الزاوية الرحمانية التي أسسها سيدي أحمد بن عبد الرحمن (المشهور ببوقرين).

- زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي في يلولة أومالو.

- زاوية سيدي محمد أمزيان الورجيوي

- زاوية سيدي منصور الجنادي ...

لقد لعبت الزاوية الرحمانية دورا كبيرا في المقاومة، إذ تزعم فيهما الحاج أعمار عام 1851 حركة ثورية ضد القوات الفرنسية. وكان قد عين عام 1845 مقدما للرحمانية، وهو زوج الشيخة فاطمة إحدى بنات الشيخ علي بن عيسى الخليفة الأول لمؤسس الزاوية، وكان شديد الحيوية والنشاط، ومال إلى تأييد الثوار أثناء ثورة الشريف بوبغلة، واعتصم بالمناطق الجبلية الحصينة قرب الزاوية، حتى أرغمته القوات الفرنسية على الاستسلام يوم 4 نوفمبر 1851 في

بني كوفي بآيت إسماعيل.

وقد احتفظ برئاسة الزاوية والإخوان حتى عام 1856، حيث تزعم من جديد الثورة بنفسه، وربط صلاته بالشيخ واعراب في آث يرثن، ولالا فاطمة نسومر، والشيخ محمد بن عبد الرحمن شيخ بني منقور (كما سيأتي).

وقادوا جميعا في جبال جرجرة جماهير الرحمانيين ضد الجيش الفرنسي الذي كان يقوم بعمليات استكشافية في جبال جرجرة تمهيدا لغزوها. وزحف الحاج أعمار بنفسه يوم 02 سبتمبر 1856 على رأس إخوانه إلى ذراع الميزان، وتواصلت المعارك حول هذه المدينة إلى غاية يوم 22 من الشهر نفسه. وقام الجنرال يوسف بالزحف على الزاوية وعسكر حولها نكاية بالإخوان، واختاره الفرنسيون لمثل هذه المهمة لشدة حقه على الإخوان خاصة والجزائريين عامة.

كان الحاج أعمار محترما جدا من طرف السكان، وقد خلف بوبغلة الذي قتل عام 1854 على رأس المقاومة. إلا أنه انهزم في النهاية كسابقيه في هذا الميدان، وذلك بسبب عدم تكافؤ القوى والوسائل بين

الطرفين.

من قبلها إذا اقتضى الأمر لإجبارها على الهدنة. وبهذه الوسيلة عرفت كل البلاد الهدنة ووجهت كل الجهود لتحضير القوات لكي تشارك في المقاومة.

وتقرر كذلك أن كل المشاحنات بين القبائل تؤجل إلى وقت لاحق، والتفرغ في الوقت الحالي للعدو الخارجي. وكل من يخالف هذا القرار فإن "الجماعة" تتخذ ضده إجراءات صارمة.

وتقرر كذلك أن كل لص يلقى عليه القبض متلبسا بالجريمة بعد ذهاب المقاتلين إلى الجزائر يحكم عليه بالموت. وقد اطلع الناس على هذه القرارات في الأسواق.

أما من حيث التحضير لهذه الحرب، فكل واحد كان مسؤولا على نفسه، وعليه أن يحضر ما يلزمه من السلاح والذخيرة والمؤونة. أما الذين كانوا غير قادرين على توفير ذلك فإن "الجماعة" هي التي تتكفل بهم، وساعدها في ذلك الأشخاص الذين كانوا غير قادرين جسمىا على المشاركة في هذه الحرب، إلا أنه كانت لهم رغبة في ذلك فشاركوا بأموالهم.

اجتمع الرجال كلهم في اليوم المحدد، وانطلقوا جميعا باتجاه العاصمة، وكانت

وفي عام 1857، هندما ألقى القبض عليه اختار مكة كمنفى له، وسافر إليها رفقة زوجته مع ابن بويغلة وبنت مولاي إبراهيم.

ردود فعل السكان تجاه دخول فرنسا إلى الجزائر:

إن نبأ الحملة الفرنسية التي نزلت بسيدي فرج لاحتلال الجزائر أحدث ردود فعل عظيمة وسط الأهالي، وهيأوا أنفسهم للمقاومة. وقد أرسل الداوي حسين بمجرد سماعه بخبر الحملة رسالة إلى مختلف الجهات من القطر الجزائري ومنها بلاد القبائل يوضح فيها خطر هذه الحملة على البلاد بشكل عام ووضح لهم كذلك أن الدين الإسلامي يحتم عليهم القيام للتصدي لهذه الحملة.

بمجرد وصول هذه الرسالة إلى بلاد القبائل، أرسل زعمائهم والأشراف منهم إلى مختلف القبائل التي كانت في حروب فيما بينها، يطلبون منها وقف الحرب وإحلال السلام، وفي حالة ما إذا رفضت إحداها هذه الهدنة، تجبرها القبائل الأخرى على ذلك، ويمكن إحراق قراها

فبالنسبة للمناطق الجبلية، استمرت الأمور بها كما كانت من قبل، لأنها لم تكن تخضع للسلطة العثمانية. أما المناطق السهلية التي كانت تحت سلطة الأتراك مباشرة، فقد ظهر وسطها زعماء من الأهالي، عملوا على توحيد هذه القبائل تحت صفوفهم. وكان أشهر هؤلاء الحاج محمد بن زعموم، وعمل سكان السهول على تبني النظم التي كان يطبقها الأهالي في الجبال، فعينوا "أمناءهم" و"طمانهم" وشكلوا بذلك المجالس القروية والقبلية، وهي التي سirt البلاد ما بين 1830 و1857 تقريباً.

إن ما ميز مقاومة القبائل للاستعمار الفرنسي بعد سقوط مدينة الجزائر، هو اتخاذهم لسهول متيجة ميداناً للمعارك الكثيرة التي دامت إلى غاية 1848، وكذلك بروز رجال المقاومة، وعلى رأسهم الحاج محمد بن زعموم - بلقاسم أوقاسي، وكذلك الحاج السعدي الذي وحده جهوده هو الآخر معهما.

وبعد تزعم الأمير عبد القادر للمقاومة الشعبية، وتحقيقه لانتصارات كثيرة أمام القوات الفرنسية، توجه السعدي إليه في

كل قبيلة أو قبيلتين تسير تحت قيادة زعيم رفقة أحد المرابطين الذين كانوا يحملون أعلام زواياهم للتبرك بها.

وقد لعب هؤلاء المرابطون دوراً بارزاً في كل المقاومة منذ يوم 14 جوان 1830 إلى غاية نهاية المقاومة الشعبية في كل أنحاء الجزائر، طوال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

أما عن عدد الرجال المشاركين في معارك سيدي فرج إلى غاية 5 جويلية 1830 فقد قدرهم روبان Robin بحوالي خمسة وعشرين ألف رجل.

واستقبلهم الداوي حسين عند وصولهم إلى مشارف العاصمة بكل حفاوة، ووزع على بعضهم بعض الأسلحة، ووعدهم بتقديم كل ما يحتاجون إليه. وشاركوا في المعارك التي دارت هناك، وأبلوا بلاء حسناً، خصوصاً وأنهم كانوا مقاتلين وقناصين من الدرجة الأولى، وساعدتهم على ذلك بنادقهم الطويلة.

إن سقوط الحكم العثماني بالجزائر لم يحدث أي خلل في التسيير ببلاد القبائل قبل عام 1842.

للشوار.

ففي عام 1845، ظهر الزعيم محمد بن عبد الله الملقب بـ "بوعود" واسمه الحقيقي محمد الهاشمي، كافح مع بومعزة ثم انفصل عنه، واستقر في جبل ديرا بمنطقة سور الغزلان، وأشاع بين الناس أنه سيطر الفرنسيين من البلاد، ثم تمركز في عين حازم بسور الغزلان، وأخذ يعمل على جمع الأنصار، وتهييج السكان، فعظم الخطر على الفرنسيين وأعاونهم، وتلقى مقاومة عنيفة من طرف أعوان فرنسا بالمنطقة إلى جانب القوات الفرنسية بطبيعة الحال، وبعد معركة 11 و 12 نوفمبر 1845 انسحب إلى جرجرة وهناك اتصل بالأمير عبد القادر، وظهر إلى جانبه الشريف مولاي إبراهيم الذي كان من رفاقه.

حاول كل من الشريف "بوعود" ومولاي إبراهيم وأحمد بن سالم أن ينسقوا العمل في ما بينهم بجبال جرجرة وحصلوا على أسلحة ومساعدات أخرى مادية من الشيخ مبارك شيخ الزاوية الرحمانية بآيت بوعلي في بني دواله، وتولى مولاي إبراهيم كتابة الرسائل إلى

معسكر، وأقنعه بأن بلاد القبائل كلها على استعداد للمشاركة معه في هذه الحرب التي هو زعيمها، وهم لا ينتظرون إلا وصوله بينهم، فعينه الأمير خليفة على كافة بلاد القبائل، وبمجرد رجوعه إلى المنطقة شرع في إثارة سكانها وحقق نجاحا كبيرا في ذلك.

وفي عام 1839 (سبتمبر) زار الأمير عبد القادر بلاد جرجرة، ونصب أحمد بن سالم خليفة جديدا على المنطقة خلفا للحاج السعدي، 14 وتمكن ابن سالم لعب دور بارز في المقاومة بالمنطقة.

كما عين ابن زعموم آغا فليسة وقشتولة ونزليوة وبني خلفون وحرشاوة وعبيد وزواتة وعمال وأخيرا الخشنة.

كما عين كذلك بلقاسم أوقاسي آغا على سباو، وكانت تتبع له يسر والقبائل المجاورة لها، وكذلك القبائل القريبة من سباو. وعين سي الجودي آغا على جرجرة. 15

منذ العقد الثاني للاحتلال، بدأ الزعماء يظهرون في بلاد القبائل التي كانت ملجأ لكل الفارين من المناطق الخاضعة من بقية أنحاء القطر، وأصبحت البلاد ملجأ

في نهاية 1849 في زاوية سيدي أحمد بن إدريس، وحاول أن يخلف بومعزة وبوعود في انتفاضتهما. غير أنه لم يجد التأييد من طرف سي الجودي.

في منتصف فيفري 1850 وصل مولاي إبراهيم إلى سوق الحد بالأربعاء ناث يرائن وخطب في الناس ودعاهم إلى حمل السلاح والانضواء تحت قيادته. ومن هناك انتقل إلى زاوية سي أحمد والسعيد في عدني وبني عيسي ثم بني مليكش حيث استقبل بحفاوة بالغة.

بروز الشريف "بوبغلة" عام 1851، تحول مولاي إبراهيم إلى تابع له، إلى أن توفي في شهر أكتوبر 1853 بعد مرض عضال بين مليكش.

مما تجدر الإشارة إليه، هو أن هؤلاء الزعماء ظهروا بكثرة في بلاد القبائل بشكل خاص، وقد سمحت الظروف للكثير منهم بأن يحققوا انتصارات رائعة على قوات العدو، في حين لم يكتب النجاح للبعض الآخر في تحقيق المهمة النبيلة التي قام من أجلها. ذلك بسبب عامل رئيسي وهو عدم تكافؤ القوى بين الطرفين، خصوصا من حيث السلاح

عدد من الزعماء في المنطقة، دعاهم فيها إلى حمل السلاح لمحاربة الفرنسيين.

في عام 1849 عاد الشريف بوعود إلى جبال جرجرة بعد أن غادرها في ظروف غامضة؟ وقيل بأنه كان أسيرا عند فرنسا ثم هرب وعاد إلى جرجرة التي كانت في هذه الفترة مستقلة عن الفرنسيين، واتصل الجودي وعرض عليه أن يخضع له كل السكان الخارجين عن سلطته، وقدم له نفسه على أنه "بومعزة" الذي كان في هذه الفترة في السجن. واستقبله سي الجودي خلال شهر جويلية 1849 في بيته بقرية إغيل بواماس في بني بودرار، وقدم له حصانا وسيفا، عنوانا على الاعتراف به وتأيينه. كما وضع تحت تصرفه أبناءه وشجع عددا من الشخصيات على الانضمام إليه.

قتل الشريف بوعود في إحدى المعارك بنواحي بني منصور، وحمل أتباعه جثته حيث دفنوه في زاوية سيدي أحمد بن إدريس بإيلولة أومالو، وخلفه في الحين على رأس الثوار، الشريف مولاي إبراهيم كخليفة له. وكان هو الآخر قد اختفت أخباره منذ عام 1845 ولم يظهر إلا

تفكر جدياً في إرسال حملة لإخضاع هذه البلاد التي بقيت إلى ذلك العهد تتحدى الاستعمار الفرنسي، ولم يكن قادراً على النفاذ إلى وسطها رغم مرور أكثر من عشرين سنة على دخوله إلى الجزائر.

وقد تقدم الكثير من المسؤولين الفرنسيين باقتراح فتحها، ف "أوربان" (Urbain) مثلاً يرى أنه يجب أن يعترف القبائل بالسلطة الفرنسية عليهم، ويجب أن تفتح جبالهم أمام فرنسا، ولا يسمح في المستقبل بالتحدث عن واد أو قمة أو غابة ليست في متناول يد فرنسا، أو يظن أصحابها أنهم بعيدون عن ضرباتها إن أرادت تأديبهم.

ومنذ السنوات الأولى للاحتلال وضعت القوات الفرنسية يدها على أطراف هذه المنطقة الجبلية، إلا أن دخولها تأخر بحوالي سبع وعشرين سنة، أي إلى عام 1857 لأنها كانت مشغولة بحروب أخرى في شرق وغرب البلاد، كما أن الحكومة الفرنسية كانت مترددة بشأن غزو بلاد القبائل، ففي عام 1844 احتدم النقاش حولها في الصحافة والمنابر، وقد رأى بعضهم أن وجود شبه دولة مستقلة

المستعمل وعدد الرجال، إلى جانب عوامل أخرى عديدة ورئيسية رجحت كفة المستعمر، وكانت الكلمة الأخيرة في القرن التاسع عشر كلمته، أي أن المسألة كانت مسألة وقت فقط. وقد تحقق قول بيرري Perret الذي قال: "إن الإنسان القبائلي يفكر فلسفياً بأنه عاجلاً أو آجلاً سنترك البلاد الجزائري" إذ لا الإنسان الروماني ولا اليوناني ولا الوندالي ولا التركي تمكنوا من البقاء، لأن الله لا يريد ذلك. فإن الإنسان الفرنسي سيأتي دوره كذلك".

وفي الحقيقة نجد أن هذه الفكرة الراسخة في نفوس معظم السكان كانت الحافز الأساسي للثورة، وتلبية أي نداء للثورة في أي مكان ما دامت الغاية هي الدفاع عن الدين والحرية والأرض والشرف...

السياسة الفرنسية تجاه بلاد القبائل قبل 1850 :

من المعروف أن بلاد القبائل كانت آخر المناطق التي دخلت تحت الاحتلال الفرنسي في شمال الجزائر، فبعد أن قضت فرنسا نهائياً على الأمير عبد القادر بدأت

" إن القبائل سيقاومونا بلا شك، ولكن التغلب عليهم أمر سهل ... إن القبائل ينظرون إلى قمم جبالهم باعتزاز فهي ملجأهم، لم تدخل إليها قواتنا إلى حد الآن، مع العلم أنها توجد على مقربة من الجزائر العاصمة... إن قبيلة زواوة تستطيع لوحدها أن تدافع عن أراضيها بحوالي خمس وعشرين أو ثلاثين ألف بندقية. إن هذه القبيلة تعتبر ملجأ لكل هارب من السلطة الفرنسية ولكل داعية للثورة".

" إن الحملة إذن ضد جرجرة ضرورية ومستعجلة من أجل شرف فرنسا والقوات الفرنسية وضمن سلامتها، وهي ضرورية لإزالة كل أمل للعرب في خروج فرنسا من الجزائر ... إن الزواوة هم المركز الوحيد للمقاومة في الجزائر، ولذا فمن الواجب ألا تتردد فرنسا في الهجوم عليهم".

"إن هذا الوقت مناسب لغزو بلاد القبائل، لأن بقية أنحاء الجزائر هادئة وفرنسا في حالة سلم مع المغرب وتونس... إن أكثر من ثلثي القوات شاركت في الحروب الإفريقية، وهي

على مقربة من عاصمة الجزائر يشكل خطراً على فرنسا، خصوصاً أن هذه الدولة تحتقر سلطتها وتأوي المجرمين والفسادين والداعين إلى الجهاد، وكل هذا يعتبر إهانة كبيرة لشرف فرنسا لا يمكن السكوت عنه.

وفي الحقيقة فإن المنطقة كانت تحيط بها ممتلكات فرنسية، فكان سقوطها أمراً محتوماً، إلا أن الحملة لم تكن منتظمة، كما أن الحكومة كانت تتهرب من ذلك هذا إلى جانب الأحداث التي كانت تعيشها فرنسا.

لقد اقترح الجنرال دوتبول D'Hautpoul احتلال بلاد القبائل في عام 1850 قصد القضاء على الثورة. إلا أن الحكومة رفضت ذلك. ومن جملة ما قاله في تقريره: " يجب إرسال حملة ضد بلاد جرجرة، وهذا العدو مرتبط بالأرض عن طريق القرى المبنية بالحجارة، وعن طريق الملكيات العقارية الأخرى، خصوصاً البساتين والمصانع والمعامل ... إن القبائل ليس من السهل عليهم أن يفروا أمام القوات الفرنسية بسبب هذه الارتباطات".

الفرنسية المزايا الاقتصادية لاحتلال بلاد القبائل، وكذلك المزايا الأمنية والاستراتيجية، ومما قاله دوتبول في التقرير السابق الذكر:

"لقد ساد الاعتقاد ولمدة طويلة عند بعضهم ومازال بعضهم، يعتقد بأن يمكن إخضاع القبائل بدون حرب، فالعلاقات التجارية ومزايا حضارتنا في رأي هؤلاء هي التي ستجعل القبائل يميلون إلينا، إلا أن هذا التصور باطل ولا يمكن أن يكون، لأنهم قبائل، ولم يحدث أن استسلمت قبيلة منهم دون أن تشعل نار الحرب مع فرنسا، فهم لم يخضعوا لكل الشعوب التي تداولت الحكم على شمال إفريقيا، فكيف يعقل أن يأتوا إلينا من تلقاء أنفسهم بدون قتال، فهذا أمر مستعجل لأن بلادهم غنية وصناعتهم غنية كذلك؛ فهم ليسوا بحاجة إلى فرنسا، ولا إلى حضارتها، فهم يتعاملون معها تجارياً. إلا أنه بإمكانهم الاستغناء عنها، فإن قاطعناهم تجارياً فإنهم سيبيعون لنا عن طريق القبائل الخاضعة لنا، وهكذا سيستمرون في أخذ نقودنا ويعيدونها لنا على شكل حقد وضغينة وكراهية. حقد لأننا مسيحيون، وكراهية لأننا كنا نطلق عليهم الرصاص دائماً،

بالتالي تعرف المنطقة، أما إذا انتظرتم المستقبل فإن معظم القوات ستكون جديدة، وليست لها خبرة بالبلاد".

"إني لا أطلب أموالاً لهذه الحملة، إذ أن القبائل التي سنغزوها هي التي ستدفع مصاريف الحملة، ونحن سنطلب منها دفع ضريبة خمس سنوات متأخرة كما نحملها خلالها من نفسها... ومما لا شك فيه فإن هذه الضريبة ستغطي مصاريف الحملة".

قدم الجنرال راندون بدوره تقريراً مماثلاً بعد تعيينه على الجزائر في نهاية 1851 وهو كذلك يرى في تقريره بأن الحملة لن تكلف كثيراً وهي ضرورية لأن القبائل يحتفظون على مقربة من مدينة الجزائر بحرية تضر إذ عن طريق الجبال التي تصل إلى البحر يمكن لهذا الشعب أن يتصل بالأعداء ويتحصل منهم على السلاح والذخيرة فيجعل من بلاده مركزاً لثورة عامة.

وقد هباً راندون لتنفيذ حملة 1854 بشق الطرق الضرورية لإيصال القوات والسلاح والتموين إلى عين المكان، وقد عدّ الحكام في تقاريرهم للحكومة

وكانوا يشتموننا بشكل دائم".

المحاولات الفرنسية الأولى لاحتلال بلاد القبائل:

كانت المراكز الأولى التي احتلتها فرنسا في بلاد القبائل هي: دلس - بجاية، على الساحل - بني منصور - ذراع الميزان فيما بعد، وكذلك تيزي وزو. وهكذا أحاطوها من الشرق والغرب والجنوب (باحتلال سور الغزلان). بمراكز عسكرية، فأصبحت لهم بذلك قاعدة ينطلقون منها لاحتلال المناطق الجبلية. إلا أنهم واجهتهم صعوبات كبيرة بسبب المقاومة الشرسة للأهالي. ويشهد راندون على ذلك بقوله: "عملنا الكثير كي نتغلب على مقاومة الأهالي إلا أننا كنا بعيدين عن تحقيق خضوعهم".

في ليلة 18 ماي 1837 اجتازت فرقة عسكرية مضيق بني عائشة (ثنية)، وهي أول مرة تجتاز فيها قوة عسكرية فرنسية هذه البوابة المفتوحة على بلاد القبائل، إلا أنها عادت خائبة.

في شهر أكتوبر 1839 مرت فرقة عسكرية بقيادة الحاكم العام قالي (Valle) والدوق دورليان (Duc-

(Dorgeans) عبر بلاد القبائل قادمة من ميلة إلى الجزائر دون استئذان الأمير عبد القادر لأن معاهدة تافنة جعلت بلاد القبائل جزءا من الأراضي التابعة له، وكان قد عين عليها خليفة أحمد بن سالم، ومرور هذه الفرقة اعتبر خرقا للمعاهدة وكان ذلك سببا لاستمرار الحرب بين الأمير والجيوش الفرنسية، وبهذه المناسبة وجه الأمير رسالة إلى أحمد بن سالم فيها ما يلي:

"إن خرق الاتفاق قد جاء من المسيحيين، إن العدو أمامكم، أجمعوا أمركم واستعدوا للمعركة، إن الدعوة إلى الجهاد قد وجهت إلى كل مكان، وأنت رجل هذه الجهات، وإنني أضعك هناك لتمنع دخول العدو".

"احذروا البليلة، اربطوا أحزمتكم، وكونوا مستعدين لكل شيء، كونوا على مستوى الحوادث وتعلموا الصبر فوق كل شيء لا تدعوا للضعف الإنساني مجالا بينكم. إنها محن أرادها الله، وإن هذه المحن قد خالطت مصير كل مسلم صالح تعهد أن يموت من أجل دينه، وسيكون النصر إن شاء الله حليف خطاكم. والسلام

من عبد القادر بن محي الدين".

وفي 18 نوفمبر 1839 أعلن الأمير الحرب من جديد على فرنسا.

كان الأمير قبل هذا العهد قد زار بلاد جرجرة في شهر ماي 1839، واتجه إلى زاوية سيدي احمد بن عبد الرحمن قرب ذراع الميزان، واستقبل هناك من قبل عدد من الشخصيات الكبيرة، وفرح بمقدمه سكان عمراوة وتيزي وزو ودلس... ومن هناك توجه إلى أحواز بجاية.

وقد تخوف الفرنسيون من نشاط الأمير، فقرروا مواجهته حتى ولو أدى ذلك إلى نقض المعاهدة، وأقدموا على اجتياز بلاد القبائل التي تقع على الطريق الرابط بين قسنطينة والجزائر، واشتعلت الحرب.

بعد أن تولى الماريشال بوجو منصب الحاكم العام على الجزائر في شهر فيفري 1841، قرر غزو بلاد القبائل ابتداء من عام 1842 لإخضاعها، وقد بدأ حملته في شهر سبتمبر 1842 وانتهت يوم 15 أكتوبر دون أن تحقق نتائج مهمة. وابتداء من 1 مارس 1843 ترأس دوق دو مال DUC-D'AUMALE حملة

أخرى إلا أنها لم تحقق الشيء الكثير ما عدا الخراب الذي ألحقه بالقرى في قبيلة نزليوة جنوب ذراع الميزان. وأنهى حملته يوم 21 مارس.

وقعت أحداث كثيرة منذ ربيع 1843 إلى غاية نهاية الأربعينات، وقعت فيها معارك كثيرة بين مختلف القوات الفرنسية وزعماء المقاومة في مختلف أنحاء بلاد القبائل في المناطق السهلية، إلا أن فرنسا لم تحقق خلالها تقدما مهما بسبب المقاومة الكبيرة التي أبدتها السكان.

الدعائم الدينية والثقافية في المقاومة:

كان العامل الديني من أكثر العوامل أهمية في المقاومة الشعبية في كافة أنحاء القطر الجزائري نظرا لكون الغازي يدين بديانة غير إسلامية، أما الشعور الوطني فلم يكن قد نشأ بعد في هذا الوقت من القرن التاسع عشر، لذا كان العامل الديني هو العنصر الأساسي في المقاومة في معظم البلدان الإسلامية، وهكذا برز منذ بداية الاحتلال زعماء دينيون في مختلف أنحاء القطر، وعلى رأسهم الأمير عبد القادر.

وفي بلاد جرجرة، فإن الأمر لا يختلف عن بقية أنحاء القطر، فكان الأوائل الذين

فإلى جانب الزعماء الروحيين الكثيرين الذين تم ذكرهم سابقا، شارك طلبة الزوايا والمعمرات في المقاومة، وأبلغ مثال على ذلك ما قام به طلبة زاوية "وذريس" (سيدي أحمد بن دريس) الذين شاركوا تقريبا في جميع المعارك التي تزعمها الشريف بوبغلة في المنطقة ولم يتخلوا عنه إلى غاية وفاته.

وتجدر الإشارة إلى "ظاهرة المسبلين" المدعمة بالطلبة بشكل خاص، وذلك إيمانا بأن مقاومة الاستعمار واجب ديني .

ثورة الشريف بوبغلة:

لن أستعرض ثورة الشريف بوبغلة بتفاصيلها وإنما سأركز حديثي تحت هذا العنوان على الجوانب الدينية التي كانت الدعامة الأساسية لهذا الرجل، وأبرز الكيفية التي استغل بها الدين لتجنيد المواطنين تحت راية الجهاد لمدة تقدر بحوالي أربع سنوات.

ظهر بوبغلة لأول مرة في سوق سور الغزلان عام 1849، إلا أنه لم يدع للثورة إلا في عام 1851، أي أنه انتظر مدة سنتين قام خلالها بدراسة المنطقة من جميع النواحي، فتعرف على موقف السكان من

رفعوا شعار الثورة قد رفعوه باسم الدين، وقد اشتهر من بين هؤلاء، الحاج اعمر مقدم الزاوية الرحمانية، والشيخ الصديق واعراب، وهو صاحب زاوية بتيزي راشد، ولالة فاطمة نسومر وهي من عائلة شريفة وصاحبة زاوية سيدي محمد أمزيان الورجيو، والشيخ الحداد صاحب زاوية صدوق.

كان شعار الثورة دائما هو "الله أكبر" والزعماء يحثون السكان على الثورة باسم الدين، حتى أن بعضهم ادعى بأنهم رسل من الله لحماية هذه الأرض وتطهيرها من الكفار الذين دنسوا أرضها، ومن هؤلاء نجد "بوبغلة" الذي سمى نفسه بمحمد بن عبد الله نسبة للرسول ﷺ وتبركا به وسمي نفسه كذلك "مولى الساعة".

وتجدر الإشارة إلى أن السكان كانوا يصدقون هذه الادعاءات، لذا كانوا يقومون كرجل واحد ليدعموا صفوف هؤلاء الثوار إيمانا منهم بعدالة قضيتهم وضرورة طرد هؤلاء الكفار من البلاد الإسلامية التي هم أجانب عنها وغرباء فيها. لهذا نجد أن الزاوية والمعمرة قد لعبت دورا بارزا في المقاومة ببلاد القبائل.

أنا الإسلام لأرتمي في أحضان المسيحية،
والله عز وجل يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾
الممتحنة: ١ ، وقد أكد ذلك الرسول ﷺ
في حديثه، وإذا كنت تظن أني بقيت بدون
سند ولا مورد، فتعال إلي وسوف تجد ما
يرضيك أو ما يحزنك كما يريد قلبك".

وإذا وجدتنا مستعدين للحرب
فسأعطيك ولمن معك من البارود
والرصاص ما يلزمكم وذلك بإذن الله،
لا تظن أني ما دمت حيا سأتحلى عن
الجهاد، وأعلم أن ثروة الرجال تكمن في
طريقة تفكيرهم وحياتهم فقط، والرجل
العاقل يجب أن يعرف كيف يعمل كي
يحقق هدفا نافعا بالثروة التي منحه الله
إياها وهي العقل والحياة، والذي يبحث
في هذه الحياة عن السعادة بواسطة جمع
الأموال فهو رجل غير عاقل لأنه يترك
السعادة الأبدية وهي سعادة الآخرة من
أجل سعادة زائلة وهي سعادة الدنيا، وأنا
أكتب لك هذا الكلام حتى تفكر جيدا في
ما تعمل، وإذا أردت أن تلتقي معي فتعال
عندي ولك أمان الله ورسوله، وسنلتقي
في سلّوم أو سوق الأحد بواضية ولا

فرنسا ومدى استعدادهم لتقديم المساعدة
له إذا ما دعاهم إلى الثورة.

كان شديد الحذر من المرابطين، إذ
يعرف أن تأثيرهم في المنطقة كبير، لهذا
كان يحاول دائما كسبهم إلى صفه وفي
حديثه معهم كان يركز على الفوارق
الدينية بين الجزائريين المسلمين والفرنسيين
المسيحيين، وهذا نموذج عن ذلك، وهي
رسالة وجهها إلى أحد الخونة كان قد
دعا بوبغلة إلى الاستسلام "إلى الذي ضل
الطريق السوي، وهجر دينه بعد أن سدت
أذانه عن كلام الله، لعنة الله عليه في الدنيا
والآخرة، إن مصيره جهنم لأنه ترك طرق
- محمد ﷺ - وسار في طريق الكفار،
حفظنا الله من ذلك وهدانا إلى الطريق
السوي آمين.

إن هذه الرسالة موجهة لسي عمر بن
موهوب " السلام على رسول الله ﷺ
وعلى أصحابه، لقد كتبت لنا لتفاوض
حول السلام، وأنا أعرف طريق الله
ورسوله، ولا تنس أن كل القبائل بيدي،
لقد جئت بأمر من السلطان الفرنسي وهو
يحمل ختمه، وظننت أني أفعل ما فعله سي
الجوزي، معاذ الله، أمر غريب كيف أترك

تخش شيئاً والسلام".

في تقرير وجهه الجنرال بلانجي (Blangini) في شهر ماي 1851 إلى الحاكم العام بالجزائر يقول: "لقد أرسل الشريف رسله الكثيرين إلى كل مكان، ولا يكاد يمر يوم دون أن نلقي القبض على بعضهم، وإن البلاد مملوءة بالدرأويش والدعاة إلى الجهاد، والذين يحرضون الناس على الثورة ... وقد اكتشفنا أن كثيرا من المسؤولين الذين عيّنّاهم من الأهالي يشاركون في هذه العملية.

ومن أهم الزعماء الدينيين الذين وقفوا معه منذ البداية، نجد الحاج أعمر مقدم الزاوية الرحمانية وكذلك سي الجوزي لحين من الزمن كما قيل أن لالا فاطمة نسومر قدمت له يد المساعدة كذلك عام 1854.

كانت ثورة بوبغلة من الناحية الدينية تدخل في إطار الحروب الصليبية التي كانت قائمة بين المسلمين والمسيحيين لمدة طويلة من الزمن، وما المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي إلا حلقة من حلقات سلسلة طويلة امتدت منذ زمن الحروب الصليبية الأولى، ونظرة المواطن الجزائري البسيط إلى المستعمر الفرنسي تبرهم على

بفضل المكانة الدينية التي ظهر بها بوبغلة وبفضل ذكائه، تمكن في ظرف وجيز من لم يختلف القبائل حوله، وفي كل مكان يمر به، كان يطرد القياد والشيوخ الذين عينتهم فرنسا ويختار بدلهم آخرين وقد أشار أوكايتان AUCAPITAINE إلى ذلك فقال: "إن عددا كبيرا من المسؤولين الذين تم تعيينهم من طرفنا تم قتلهم من طرف بوبغلة أو طردهم بعد أن نهب أموالهم، وإن الذين منحوا رتباً مهما كانت درجتها من قبلنا وخدموا أو هم الآن في خدمتنا كانوا يتعرضون لذلك".

بدأ بوبغلة دعوته أول الأمر في منطقة وادي الساحل، ومنذ الأيام الأولى استجاب له الناس ولبوا دعوته فحقق انتصارات بهذه المنطقة، وفي الوقت نفسه كانت رسائله ورساله يحدثون الناس على الثورة ويدعونهم إلى الجهاد في كل من المدينة ومليانة والأصنام وبلاد القبائل وحتى الحضنة 30 وكسب بسرعة إلى صفه مولاي إبراهيم الذي سبقه إلى المنطقة مع كل أتباعه كما كسب طلبة زاوية وذريس بيلولة أو مالو.

ديننا، ولكن هذه الحيلة لم تنطل عليهن مع أنها كانت مناسبة لما في طبيعتهن من حياء وحشمة، فقد هدأت الضجة لحظة وسارت بينهن همهمة، ثم صرخت إحداهن بصوت عال: مسلمان؟ طيب. إذا كانا كذلك فهما مطهران، سوف نتأكد ذلك في الحين...".

بعد أول عملية قام بها بوبغلة في وادي الساحل وكللت بالنجاح، وأقيم حفل كبير في قرية أقرؤ توريرت تناول فيه الكلمة وأكد فيها للناس أنه "مول الساعة، وقد أرسله الله لإلقاء النصارى في البحر وأنه لا يقهر.

وما تحذر الإشارة إليه أن جميع المعارك التي خاضها السكان تحت قيادة بوبغلة شخصيا أو قيادة قادة آخرين كانت ترفع فيها أعلام الزوايا التي تنتسب إليها كل فرقة عسكرية.

دامت المعارك في وادي الساحل إلى غاية شهر جويلية 1851، وكانت فرنسا قد جندت لها فرقا عسكرية كثيرة استقدمتها من سور الغزلان وسطيف إلى جانب الموجودة في عين المكان وكانت هذه أول مرة تعرف المنطقة ثورة حقيقية

هذا القول، فهو قبل كل شيء كافر فهو إذن عدو الله، لذا يجب محاربته، فهم ينظرون إليه من الزاوية الدينية قبل أن ينظروا إليه من الزاوية المادية أي أنه جاء ليحتل أرضهم بالقوة.

إن مذكرات شلوصر، الجندي الألماني الذي كان ضمن الجيش الفرنسي ثم القي القبض عليه من طرف الجزائريين، يعطينا فكرة عن ذلك فيقول: "... وقد جلبت انتباهنا بصورة خاصة كلمات عربية معينة كانوا يرددونها في اليوم الواحد أكثر من مائة مرة، فما من عربي أو بدوي التقى بنا أو رأنا نعمل إلا وطلب منا قائلا: اشهدوا. ولم يكن في استطاعتنا أن نرد عليه، ولذلك كان يقول لنا: "قولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله". وفي مكان آخر يقول: "إنهم لما كانوا في طريقهم إلى قسنطينة مروا بقرية، فخرجت النسوة من جميع الأكواخ وهجمن عليهم بالمناجل والخناجر، ويقول كذلك: "لقد كن يطالبن بروؤوسنا في غضب شديد، وإذا هن لم يتمكن من ذلك فإنهن سيهاجمن الحراس، وعندئذ صعب على الحراس أن يجدوا مخرجا مما كانوا فيه ولم يبق لهم في النهاية إلى أن يعلنوا أننا تخلينا عن

في تقرير وجهه النقيب بيشو PECHOT وهو حاكم المكتب العربي بمقاطعة الجزائر عندما كلف بالتجول في هذه المنطقة ليبتل مفعول محاولاته، قال: "إنه متأكد بأن الأهالي سيقون تابعين لهذا الشريف، وأنه مهما حاول جذبهم إليه فإنه لن يفلح، لأن الشريف عرف كيف يؤثر فيهم، ويجعلهم ينساقون له".

إن تأثير الشريف في الأهالي كبير جدا، فهو يعدهم بالاستقلال ويوهمهم بأنه ينتظر إمدادات كبيرة تصله".

بتاريخ 18 أوت، وقعت معركة بين قوات بوبغلة وقوات النقيب بيشو انتصر فيها بوبغلة انتصارا باهرا، وحدثت المعركة بالشكل التالي : كانت قوات بلقاسم أوقاسي معسكرة خلف ينبوع عين الزاوية، وأمر رجاله بعدم إطلاق النار إلا بعد أن يقترب منهم رجال بوبغلة، وكان قد وضع في الصفوف الأمامية بعض المخبزين، وهرب هؤلاء بمجرد رؤيتهم بوبغلة قادما، وذلك بعد أن أطلقوا بعض الطلقات النارية.

في هذا الوقت كان بوبغلة يسير بمفرده في المقدمة راكبا حصانه "الدرويش"

وحقق فيها بوبغلة انتصارات كثيرة إلا أن فرنسا كانت ترد في كل مرة بحرق جميع القرى التي تساعد، ولما تأكد له أن القوة الفرنسية المجندة في المنطقة لا يمكنه بوسائله البسيطة مواجهتها، فضل الانسحاب مؤقتا إلى شمال جرجرة، فوصل إلى بني صدقا حيث استقبله السكان استقبالا كبيرا يليق بمقامه.

منذ شهر جوان قبل وصول بوبغلة إلى شمال جرجرة كان بعض أتباعه قد سبقوه إلى المنطقة وكانوا ينتقلون وسط القبائل يشرونهم بقدوم الزعيم الذي سيطر المسيحيين من بلادهم وأنه رجل مرسل من عند الله لتحقيق هذه الغاية فهو "مولى الساعة المنتظر" ولهذا فإن بوبغلة لم ينتظر طويلا كي يبدأ نشاطه في المنطقة.

وكان أهم مركز لثورته هذه المرة زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمن، وتمثلت أولى ثمرات مجهوده في تمرد الكثير من القبائل على الباشاغا بلقاسم أوقاسي وأعلنت ولائها لبوبغلة وهي : قشتولة - بني منداس - بني كوفي - مشطراس - بني بوغردان (أسي يوسف) - بني إسماعيل - فريقات.

أتباعه أصبحت أوامرهم غير مسموعة وأصبح السكان يسمونه "الرومي".

على إثر هذه الأحداث أرسلت فرنسا قوات عسكرية جديدة لبلاد القبائل ففي يوم 17 سبتمبر أرسل جنرال كوني CUNY على رأس قوة عسكرية لمواجهة بوبغلة بعد أن عجزت أمامه القوات الموجودة في المنطقة، وأول عمل قام به هو غلق الأسواق في وجه جميع القبائل عقاباً لهم على مواقفهم. وفي 27 أكتوبر قاد الحاكم العام بالنيابة الجنرال بليسي PELISSIER شخصياً حملة أخرى على المنطقة لمواجهة بوبغلة وجرت معارك كثيرة بين الثوار والفرنسيين انتصر في الكثير منها بوبغلة إلا أن سياسة الأرض المحروقة التي اتبعها بليسي أثرت كثيراً على السكان إلى جانب التفوق العددي للفرنسيين وكذلك نوع السلاح، فانسحب بوبغلة مؤقتاً، ودخلت مختلف القبائل بيت الطاعة، ومن جملة القرى التي أحرقت أو هدمت في هذه العملية نذكر حرق قرى آث الزعيم بمعاققة، إحراق قرى مرتفعات بوغني، وإحراق حوالي أربعين قرية تابعة لمعاققة في معظمها، ومنها إغيل إيمولا وآيت عبد المومن، وتم هدم قرى أث

وخلفه على عشرين خطوة يسير خليفته، وعلى خطوات منه كان يسير الفرسان ثم المشاة.

عندما اقترب بوبغلة أطلق بلقاسم أوقاسي النار ثم رجاله من بعده ولكن هل سدد الفرسان بنادقهم كما ينبغي؟ أمر مشكوك فيه، لأنهم كانوا يخافون أن يقتلوا "رسول الله" وعندما انقشع الدخان، رأى رجال بلقاسم أوقاسي أن بوبغلة ما زال يسير في اتجاههم، وهنا تأكدت لهم حقيقة كونه رجلاً لا يغلب، ولا يقتله الرصاص كما كانوا يسمعون عنه، وهنا اشتد بهم الخوف فترجعوا بسرعة وهربوا بكل سرعة من غير أن يستطيع أحد إيقافهم.

فاضطر النقيب بيسو هو الآخر إلى الانسحاب وقد كانت لهذه الحادثة آثار جد حسنة وسط الأهالي رفعت من معنوياتهم وزادت من شهرة بوبغلة فانضمت قبائل جديدة كثيرة إليه. وفي تقرير كتبه بيشو بتاريخ 15 سبتمبر 1851 يقول: "اليوم تيقنت نهائياً مما كنت أشك فيه وهو أن القبائل أصبحوا حقيقة في حالة ثورة حقيقية. وبلقاسم أوقاسي وبعض

عام 1852، وعينوه باشاغا على بلاد زواوة، وبذلك يكون بوبغلة قد خسر حليفا كبيرا في المنطقة.

وكان أهم شرط فرضته فرنسا عليه لفك الحصار الاقتصادي على المنطقة هو طرد الشريف بوبغلة منها، لذا اهتم كثيرا بهذه القضية فوزع المنشائر في الأسواق مقدما مكافأة لمن يأتيه برأسه إلا أنه لم يكن هناك من تغريه المكافأة ويخطر بنفسه ليلقي القبض عليه لأنهم متأكدون أنه "مولي الساعة" وأنه لا يؤثر فيه الرصاص.

في إحدى المعارك التي قادها يوم 19 جوان في واضية بعد أن عاد إلى المنطقة، أصيب بجروح في الرأس، وتوقع الفرنسيون أنه ستنهار معنوياته بسبب هذه الإصابة وأن الأهالي سيسحبون ثقتهم منه، لأنه كان يقول لهم بأنه رجل لا يؤثر فيه الرصاص، إلا أن بوبغلة كان ذكيا فقال لهم بأنه نسي أن يأخذ معه طلاسمة التي تحميه من الرصاص، كما أن الرصاصة التي أصابته كانت من الذهب.

استمرت عملية الكر والفر بين الثوار بقيادة بوبغلة والجيش الفرنسي تارة شمال جرجرة وطورا في جنوبها إلى أن

كوفي يوم 14 نوفمبر لأنهم لم يستسلموا بسرعة وفي بني منداس هدمت بيت صهر بوبغلة وهو عمر أو محمد والحاج في حين التجأ أهل قشتولة إلى زاوية سيدي أحمد بن عبد الرحمن ليستنجدوا بالحاج أعمر وطلبوا منه أن يتوسط بينهم وبين السلطة الفرنسية، وكان بليسي قد طلب منه أن يأتي إلى معسكره وهو يأمل في كسبه إلى صفه، لأن أتباعه كثيرون، وقد جاء بالفعل يوم 15 نوفمبر وطلب العفو لبني كوفي، وقد قبل طلبه، ويبدو أنه فعل ذلك حتى يؤثر عليه ويتمكن في المستقبل أن يكسبه، ولكن ذلك لم يحدث وبذلك انتهت الحملة يوم 21 نوفمبر.

بسبب استسلام معظم القبائل التي كانت تؤيد بوبغلة اضطر هذا الأخير إلى العودة إلى بني مليكش من جديدة حيث كان يجد دائما الدعم والترحاب في كل وقت.

بسبب الخسائر الكبيرة التي ألحقها الجيش الفرنسي بالمنطقة وبسبب الحصار الذي فرضه على الأسواق وإلقاء القبض على عدد كبير من تجار المنطقة وإيداعهم السجن، استسلم سي الجوزي مع بداية

جاءت سنة 1854، وقامت حرب القرم الشهيرة بين روسيا والدولة العثمانية. والمعروف أن فرنسا ساندت هذه الأخيرة أي السلطان العثماني، فأرسلت له جيوشا كبيرة من الجزائر، لهذا انخفض عدد الجيوش إلى درجة كبيرة إذ أنه من يوم 25 مارس إلى أواخر شهر جوان، تم نقل ثلاثين ألف جندي من مختلف الأسلحة إلى الشرق.

وكان هذا القرار فرصة ذهبية بالنسبة لبو بعلجة، وقد عرف كيف يستغلها ويعلن للقبائل بأن المناسبة قد حانت لطرد فرنسا من الجزائر لأنها أصبحت ضعيفة جدا ولا يتطلب الأمر إلا مجهودا بسيطا ليلقوا بها في البحر الذي جاءت عن طريقه، وقد صدق الأهالي ذلك خصوصا عندما رأوا القوات الفرنسية تنسحب من المنطقة باتجاه الموانئ وكان بعض الثوار قد أشاعوا بين السكان بأن فرنسا أرسلت قواتها إلى اسطنبول للإطاحة بالسلطان العثماني وهو سلطان المسلمين. ولهذا أمر راندون بمراقبة الجمعيات السرية التابعة للزوايا (الإخوان) لأنها هي التي كانت وراء هذه الإشاعة.

جرح الشريف بو بعلجة في المعارك التي جرت شهر أفريل 1854 بعزازقة وتعذرت

عليه المشاركة في المعارك الباقية وتم نقله إلى زاوية سي العربي شريف بني جناد، إلا أنهم نصحوه بالخروج من هذه المنطقة بعدما وصلتهم أخبار بأن بلقاسم أوقاسي اقترح مبلغا ماليا كبيرا على مضيف بو بعلجة مقابل ضيفه إلا أنه رفض بيع "شرفه" كما قال وكان بنو جناد يرون أنه إذا رفض هذا الرجل المبلغ فهناك من يرضى به ويقوم بأي عمل يمس بو بعلجة، بهذا بعثوه إلى بني يجار حيث كان له بيت، ومن هناك نقلوه إلى يلوله أومالو، وفي 7 جوان جاءه الحاج اعمر مقدم الرحمانيين فنقله مع عائلته إلى قرية أولاد علي أيلول، في حين ذهب هو إلى سومر والتجأ إلى عائلة سي الطاهر أخ فاطمة نسومر.

لما علم النقيب بوبريط حاكم ذراع الميزان بقدوم نساء بو بعلجة إلى أولاد علي أيلول، أعطى الأوامر للباشا سي الجودي بإلقاء القبض عليهن، وكلف هذا الأخير ابنه أحمد بهذه المهمة، فسلمهن الأهالي أمام تهديد سي الجودي، إلا أن زوجة الحاج اعمر تدخلت وأنقذتهن، وقالت بأنهن تحت حمايتها، وإن سلمت هؤلاء النسوة لبوبريط ستسلم نفسها كذلك، ونظرا للمكانة المحترمة التي

يقول الجنرال يوسف: " إن الإنسان القبائلي لا يستطيع أن يفلت من أيدينا، فهو مزارع جيد، ولا يهتم إلا بأرضه فهو يدافع عنها حتى الموت، إلا أنه لا يتركها، وهو كذلك صانع، فهو يصنع كل الأدوات التي يحتاجها في حياته اليومية، فهو إذن يمكن جرحه في كل الجهات، في بيته، في حقله، في صناعته، وفي هذه الوضعية لا يملك تجاهنا إلا خيارين: "فإما أن يقبل الخضوع لفرنسا عندما تريد ذلك أو يموت".

قبل أن تنسحب الجيوش من أي قرية، كانت حريصة على هدم المسجد على الأقل إن لم تهدم القرية، وكانت قد فجرت تفجيرا كالا من مسجد توريرت أث منقلات، وكذلك مسجد قرية الساحل بآث نجار.

من جملة وسائل الدفاع التي استعملها الأهالي، نجد نظام "المسبلين" الذين جندهم سي الطاهر أخ فاطمة نسومر وكان من كبار قادة المقاومة، وقد وجد هؤلاء "المسبلين" مقتولين في خنادقهم وهم مقيدون من أرجلهم كما هو الأمر في نظام هؤلاء.

تتمتع بها وسط الأهالي تدخل الرجال وأخذوا نساء بويغلة إلى بيت الحاج اعمر الذي كان يقيم في هذا الوقت في قرية بوعبد الرحمن بنني وسيف بعد أن هرب من الزاوية بسبب مضايقات بوبريط، ولما سمع هذا الرجل بما حدث استقدم صديقه بويغلة بسرعة وساعده على نقل عائلته إلى بني يني بعد أن لاحظ أن إقامته بنني واسيف أصبحت تشكل خطرا عليه، خصوصا بعد أن عرف العدو مكان وجوده.

لا تتوسع كثيرا في بقية فصول حملة راندون على جرجرة ونكتفي بالتذكير بالنقاط التالية:

- لا تكاد تخلو معركة من المعارك الكثيرة التي خاضها المستعمر مع الأهالي من مشاركة الشيخ ورجال الدين المرابطين وطلبة زاوية وذريس.

- عمل راندون على هدم وحرق أغلب القرى التي مر بها، وقطع الأشجار المثمرة، على رأسها أشجار الزيتون وأظهر شراسة في الموضوع لا مثيل لها حتى يحمل الأهالي على الاستسلام دون إطالة ودون شروط.

معه، وهذه رسالته: "أخبركم أني لا أريد إلا خير وتقدم البلاد، وأن أعمالي السابقة تبين ذلك، أنت ياسي صديق تنتمي إلى عائلة شريفة... عينوا الذي تملكون فيه الثقة لتتفاوض...". إلا أن الباشا محمد أوقاسي لم يكن راضيا بهذا النوع من الحلول، وفضل استعمال القوة لرفع معنويات القياد في المنطقة، إلا أن راندون أرسل إلى قياد الأربعة ناث يرثي أمرهم فيها بالكف عن الحرب وإحلال السلام مع الشيخ واعراب مهما كلفهم ذلك.

في هذه الظروف المضطربة ظهر زعيم جديد بالأربعة ناث يرثي ناث حاول إشعال النار من جديد ولقب بلقب "بوحماره" لأنه ظهر راكبا أتاناً وهو في الحقيقة ابن خليفة بوبغلة سي قويدر التيطري الذي انزوى بعد وفاة بوبغلة، ولما كانت شهرته لا تسمح له بالظهور كزعيم جديد، قدم ابنه على أساس أنه "مول الساعة" وبدأ ينشر حوله دعاية ليجمع أتباعاً، وحدث هذا في شهر جويلية 1855، واسمه الحقيقي المختار بن قويدر، إلا أنه ظهر باسم يحي بن يحي أخ الشريف يوسف الذي قتل عام 1849 بالشرفاء. وكان أول شخص اتصل به هو الشيخ صديق واعراب كما اتصل

انتهت الحملة أواسط جويلية وعادت القوات الفرنسية إلى أماكنها، وقام راندون بتعيين حكام جدد يمثلون السلطة الفرنسية في المنطقة وكان أول من تصدى لهؤلاء "الخونة" الشيخ صديق واعراب صاحب زاوية تيزي راشد وكان ذلك وسط سوق لاربعة ناث إيراثن يوم 30 جانفي 1855 عندما تقدم وسط الجموع رافعا علم الزاوية وقال لهم: "أيها المسلمون إلى غاية اليوم كنتم أحرارا، ولم يتدخل في شؤنهم أحد وهاهم هؤلاء (يقصد القياد) لم يحترموا تقاليدكم فطلبوا برنوس الحكم من "الرومي" ويدعون خدمتكم، وأنا أحذركم أن الذي فقد شرفه وخضع لهم فإنه يحرم من تبعيته للزاوية، وأن لعنة أجدادي الصالحين ستلحق به" فقام الحاضرون في الحين بطرد القياد المعنيين من السوق، وكان هذا الحدث بداية لتمرد جديد سي شمل المنطقة بعد أقل من سنة.

كان رد فعل الباشا محمد أوقاسي سريعا وأرسل قواته إلى المنطقة إلا أن "وولف" حاكم دلس وهو الذي تتبع له كل بلاد جرجرة، لم يرغب في التصعيد لأن قواته في هذا الوقت بسيطة، فاتصل بالشيخ واعراب ورغب في التفاوض

في بداية 1856 حاول الحاج اعمر تنسيق جهوده مع جهات أخرى فاتصل بالشيخ صديق واعراب الذي ظل يقاوم طوال 1855 وبداية 1856، كما أراد الحاج اعمر أن يستفيد من المكانة التي تحتلها فاطمة نسومر وسط المواطنين وقوتها في إقناعهم بضرورة الثورة ومساعدة كل القبائل الثائرة.

وكان الحاج اعمر يخطط لقيادة الثورة في ناحية ذراع الميزان، ويشرف الشيخ الصديق واعراب على منطقة تيزي وزو، ويشرف على إقليم بني منصور أحد أتباعه في المنطقة وهو المرباط سي محمد بن محمد الرحمن. وبدأت الثورة بالفعل في شهر أوت 1856، ولو أنها لم تحقق نجاحا كبيرا، إلا أنها كانت من جهة أخرى بداية لثورة 1857. ويشير حاكم ذراع الميزان في تقرير بتاريخ 24 أوت. 1856، إلى أن الحاج اعمر تمكن من جمع مختلف القبائل بالمنطقة بما فيها تلك الخاضعة لفرنسا. وزحف بها على برج الباشاغا سي الجودي بواضية وأحرقه وخلال المعركة التي جرت بين الطرفين والتي خلفت خسائر في الأرواح لدى القوات الفرنسية والمالية لها، جرح

بفاطمة نسومر ثم انتقل إلى بني مليكش لطلب المساعدة وإحياء الجهاد. إلا أن هذا الزعيم الجديد لم يعمر طويلا إذ أُلقي عليه القبض يوم 29 ديسمبر 1855 في ضواحي أث يراثن وسجن بعض الوقت ثم أعدم في سوق تيزي وزو ومثل به بأمر من حاكم هذه "المدينة" بوبريط، حتى يثير الرعب في سكان المنطقة.

وبالنسبة للقبائل التي ساندته فقد أصدر الحاكم العام قرارا بتاريخ 15 ديسمبر يمنع عليها دخول أسواق المنطقة.

أما في منطقة ذراع الميزان فقد كان سي الحاج اعمر قد أعلن الثورة من قبل بتأييده العلني لبوغلة (كما تقدم)، ووجد سي الجودي باشاغا المنطقة نفسه مطالبا بالتصدي لهذا الزعيم الروحي الشيء الذي لم يقدر عليه، لأن أتباعه وبكل بساطة وجدوا أنفسهم مخيرين بين سي الجودي والحاج اعمر فاختراروا الثاني بدون تردد، وهكذا شيئا فشيئا وبكل هدوء وجد الباشاغا نفسه محطما، ولم يعد أحد يسمع كلمته في أرض كانت بالأمس القريب وبكلمة واحدة يجربها كل الناس خلفه.

بهجوم كبير على ذراع الميزان يوم 02 سبتمبر، وهو المركز الحصين للقوات الفرنسية وقال قاسطو في تقرير له بأن قوات الحاج اعمر كانت تقدر بحوالي ستة أو سبعة آلاف رجل.

تحركت القوات الفرنسية يوم 11 ديسمبر من ذراع الميزان وبوغني باتجاه هدف واحد وهو قبيلة افريقات حيث كان يقيم الحاج اعمر وجرت اشتباكات بين الطرفين، وخلفت قتلى في صفوف الفرنسيين لأن جنودهم كانوا حديثي العهد بالحرب (مجندون جدد عوضوا القدامى الذين ذهبوا إلى القرم ولم يعودوا بعد) كما أن الثوار اتبعوا حرب الكمائن وساعدتهم على ذلك معرفتهم بالمنطقة وبجبالها ووديانها وكانوا هم الذين يفضون على العدو مكان اللقاء. وكانت الثورة قد امتدت إلى بني منصور وبني يعلا وتيزي وزو والأربعاء ناث يرائن، إلى غاية 20 سبتمبر، أي بعد تسعة أيام من بداية المعارك، خسر الجيش الفرنسي ثمانية ضباط و 232 جنديا و 534 حصانا و 179 بغلا وهذه الخسائر الكبيرة دلالة واضحة على مدى استماتة الأهالي أمام العدو ورغم الفرق الشاسع بين الطرفين

حاكم ذراع الميزان شخصيا وهو دوفو DEVAUX، وعلى أثر هذه المعركة أشار في تقرير لمسؤوليه بأن الثورة ستكون عارمة وهي لم تعد بين قبيلة وقبيلة وإنما أصبحت بين خاضع وغير خاضع وشارك مع الحاج اعمر زيادة عن قبائل المنطقة آث يرائن، عمراوة، وبني عيسي. وقال دوفو بأنه حتى القبائل المجندين في قواته بدأوا ينسحبون تدريجيا بعد أن شعروا بالهزيمة التي مني بها قائداهم في واضية. وفي يوم 29 زحف الحاج اعمر على المركز العسكري الذي كان دوفو قد أقامه في تيزي ثلاثا، إلا أن هذا الأخير هرب منه بسرعة عندما خذله قبيلة بن بوعدو وبني بوغرذان اللتان كان يأمل أن تقف معه، إلا أنها فضلت الحاج أعمر وانضمت إليها في وقت لاحق كل من بني منداس، مشطراس، بني كوفي، بني إسماعيل، فريقات. ولم ينجح دوفو في بوغني إلا فراره بسرعة إلى ذراع الميزان، وقوات الحاج اعمر خلفه.

كان رد فعل الحاكم العام في الجزائر سريعا، إذ أرسل حملة كبيرة إلى المنطقة تحت قيادة الجنرالات يوسف، رونو، فاسطو، إلا أنها لم تكن الحاج أعمر فقام

في الأرواح.

نلاحظ أن الباشاغا سي الجودي خذل القوات الفرنسية لأنه لم يشارك معها، وربما السبب الوحيد هو كون قائد الثورة هو الحاج اعمر شخصيا، وسي الجودي يعرف المكانة التي يحتلها هذا الرجل والزاوية التي يمثلها في كل منطقة القبائل، ويكون قد راجع نفسه فوجد أن مكانه الطبيعي بين ذويه، ومن المحتمل أن يكون قد انضم إلى الثوار ولو أننا لا نملك وثائق عن ذلك إلا أننا نستنتج ذلك من موقف فرنسا بعد ذلك إذ قامت بنفيه من الجزائر كما كانت تفعل مع الكثير من الثوار ومنهم الأمير عبد القادر والحاج اعمر نفسه.

في أواسط أكتوبر كانت معظم القبائل قد أعلنت عن استسلامها بعد أن خربت قراها ومحاصيلها.. وهكذا أعلن راندون عن نقل القوات من منطقة ذراع الميزان إلى حوض سباو والأربعاء بني دواله حيث بقيت جيوب للمقاومة وكذلك الأربعاء ناث يراثن وتصرفت القوات الفرنسية كما تصرفت في نواحي ذراع الميزان بعد المقاومة العنيفة فهدمت القرى وأحرقت

في القوة والعتاد، ويسبب المقاومة الشديدة تولى الجيش الفرنسي ابتداء من 25 سبتمبر الحاكم العام شخصيا وهو المارشال راندون.

تسلقت قوات الجنرال يوسف جبال بني إسماعيل حتى وصلت زاوية محمد بن عبد الرحمن ونصبت خيامها بجوارها، وكان أول عمل قامت به هو نهب الكتب والمخطوطات التي وجدت في الزاوية ونقلتها إلى خيامها، كما نهبت كل القرى التي مرت بها وأخذت ما وجدته بها من المواد الغذائية وعلف الحيوانات لأنها أصبحت بعيدة عن ذراع الميزان مركز التزود بهذه المواد، فأصبحت تعتمد على ما تجده في القرى التي هرب سكانها كلما أصبحت بعيدة، فكانت تنهب البقر والدواجن والبيض والسمن والفواكه وكذلك قطع القماش... بعد نهبها لما تحتاج إليه كانت القوات الفرنسية تهدم القرى لانتزاع الخشب الذي تستعمله في تدفئة جنودها لأن الطقش كان باردا.

رغم استبسال الثوار في المقاومة، إلا أن القوات الفرنسية كانت تتقدم في زحفها ببطء رغم تكبدها لخسائر كبيرة

فإن حملة جديدة على بلاد القبائل شرع فيها منذ يوم 10 ماي 1857، وشاركت فيها هذه المرة قوات قادمة من وهران وقسنطينة والجزائر وسطيف وبرج بوعريريج، إلى جانب القوات الموجودة في المنطقة وقدرت هذه القوات بحوالي 35 ألف رجل.

وكان هدف هذه الحملة الأربعاء ناث يراثن عكس حملة 1854. ولم تختلف في بشاعتها عن الحملات السابقة. ونستعرض ما كتبه شاهد عيان عن بشاعة ما حدث، وهو طبيب الحملة: "إن فرقة باتي PATE دخلت عاصمة بني منقلا، فاقتحمت المساكن ونهبت وحطمت مطامر الحبوب ومزقت قراب الزيت أو حطمت جرارها، حفرت الجدران ونزعت كل الأخشاب الموجودة في البيوت وجمعتها في ساحة المسجد حيث كونت كومة كبيرة وأشعلت فيها النار.

إن عملية الهدم بدأت على طول الخط الذي استولت عليه فرنسا، وعوض صوت الرصاص، كانت أصوات أخرى وهي صوت المنشار والفأس والشاقور

غابات الزيتون خصوصا في بني دواله وكان هذا سببا في إعلان معظم القبائل كذلك بالمنطقة على استسلامها، إلا أنه استسلام لربح الوقت إذ لم تنفجر ثورة 1857 حتى هبت هذه القبائل كرجل واحد لدعم الثورة.

بسبب استسلام القبائل، وتقدم فصل الخريف، أعلن راندون أن نهاية الحملة ستكون يوم 11 أكتوبر، وفي نداء عام وجهه لجنوده قال: "أيها الجنود، سوف لن تودعوا هذه الجبال التي جلتم فيها إلا لمدة قصيرة، فإننا سنعود في الربيع المقبل، ونغزو بلاد القبائل هذه حيث لم يدخل أحد قبلنا.

أما في جنوب جرجرة، فقد سارت الثورة بزعامة ممثل الحاج اعمر أي سي محمد بن عبد الرحمن، وجندت فرنسا لها قوات كبيرة من بني منصور وسور الغزلان، إلا أنها لم تكن بنفس العنف الذي عرفته في الشمال لأن قبائل كثيرة كانت قد استسلمت، ومع ذلك فإن فرنسا قد استعملت نفس الطرق في الهدم والتخريب والحرق.

كما وعد راندون في نهاية 1856.

دامت هذه الحملة أكثر من شهرين، وعادت القوات الفرنسية إلى مناطقها، وكانت قد خلفت وراءها الخسائر التالية في صفوف الجيش الفرنسي : 286 قتيلًا و1032 جريحًا. أما عدد المرضى الذين تم إرسالهم إلى المستشفى بالعاصمة فبلغ 2458 شخصًا.

التبشير :

كانت هناك بعض الدوائر الفرنسية ترى أن بلاد القبائل تختلف عن غيرها من البلاد الجزائرية، فالقبائل في نظرها لا ينتمون إلى أصل بقية سكان الجزائر، ولهم لغة تختلف عن لغتهم، وحتى في الدين فإنهم - في نظر هؤلاء - لا يدينون بدين واحد رغم اعتناقهم للإسلام- الذي فرض عليهم بالقوة- وانطلقوا من موضوع حرمان المرأة من الميراث ليصلوا إلى هذه النتائج، فهم - كما يقولون - يعتمدون على عاداتهم القديمة وليس على القرآن، ولهذا يرى هؤلاء بأنه على فرنسا أن تبدأ بغزو النفوس في الجزائر عن طريق بلاد القبائل.

بعد عشر سنوات من احتلال بلاد القبائل أي عام 1867، استدعي الكاردنال

وأصوات سقوط الأشجار المثمرة وأصوات النيران التي تلتهم كل شيء، وقد تم هدم مسجد ثوريرت بواسطة لغم وضع فيه، وهذا العمل كان يتوقع منه أن يفشل المقاومين، ولكن الظاهر أنه أعطاهم نفسًا جديدًا".

كانت المقاومة عنيفة، إلا أن الدمار الذي سببه الجيش الفرنسي كان أعنف، فاستسلمت القبائل مكرهة تباعًا لتقدم الجيوش الفرنسية وصعودها من وادي عيسى وصولًا إلى الأربعاء ناث يراثن ثم عين الحمام وبني بني. وفي 08 جويلية استسلم الحاج اعمر الذي كان تزعم المقاومة في نواحي ذراع الميزان منذ 1856.

وفي يوم 11 جويلية ألقى القبض على فاطمة نسومر في قرية تخليجت أث عتسو التي لجأت إليها مع نساء وأطفال قرية سومر. واستسلمت قبائل المنطقة كذلك، وكانت آخرها أث يجار التي استسلمت يوم 13 جويلية، وبذلك تنتهي حملة المارشال راندون بإخضاع بلاد القبائل نهائيًا بعد 27 سنة من دخول فرنسا أرض الجزائر.

بالأعمال الخيرية فقط، وبذلك تجنبوا المس بشعور الأهالي السريع التأثير عندما يتعلق الأمر بمعتقداتهم الدينية بواسطة الأعمال الخيرية توصلوا إلى كسب ثقتهم.

كان لافيغري في البداية قد قرر ألا يرسل المبشرين إلا لبعض القرى التي توافق ذلك، أو التي تتقدم بطلب إرسالهم إليها.

في لقاء جمعه بنابليون الثالث يوم 12 سبتمبر 1867، قدم لافيغري له برنامج عمله. الرامي إلى الذهاب بنفسه إلى عين المكان ودراسة الإمكانيات التي ستحقق نجاح برنامجه، ووافق نابليون على ذلك، وفي هذا الوقت كان يوجد في (الأربعا ناث يراثن) منذ عام 1861 أحد الجيزويت وهو الأب كروزا CREUSAT الذي حول داره إلى ملجأ لليتامى والمحتاجين، فكان يقدم لهم الطعام والدواء واللباس وحتى بعض الأموال في بعض الأحيان، ويعود هؤلاء إلى أقاربهم أو قبائلهم ويحكون عنه كل خير حتى أصبح معروفاً في كل المنطقة بسرعة وهذا الأب هو الذي كلف بتحضير رحلة لافيغري إلى المنطقة، ونشر خبر ذلك وسط القرى والقبائل،

لا فيغري ليتولى مسؤولياته الدينية في الجزائر، وكان يرى أن الوقت قد حان للقيام بعملية غزو النفوس"، وعزم على إرسال الآباء البيض إلى بلاد القبائل وذلك بعد أن شكل طائفة من المبشرين.

إن مشروع هؤلاء الأساقفة كان يتمثل أساساً في خلق مؤسسات خيرية في بعض المناطق من بلاد القبائل وهذه المؤسسات من المقرر أن يجد فيها الأهالي العناية الطبية، ثم اتسع النشاط فيما بعد ليشمل التعليم، وعلى الرغم من نفور الأهالي من هؤلاء المبشرين في بداية الأمر إلا أنهم اضطروا إلى قبولهم فيما بعد، نظراً لما كانوا يقدمونه من خدمات طبية لهؤلاء السكان، تلك الخدمات التي لم تكن معروفة عندهم من قبل، إلى جانب هذا، فإن المبشرين عرفوا كيف يتقربون من الأهالي، خصوصاً وأن الكثير منهم تعلم لغة الأهالي بسرعة، وسهل ذلك عليهم تقربهم من السكان، وبخدماتهم المختلفة تمكنوا من التغلغل وسط المنطقة والسيطرة على نفوس الكثير من الأهالي.

في بداية نشاطهم لم يسمح للآباء البيض بالدعوة للمسيحية، وإنما اكتفوا

ووعدهم بأن مجيء لافيجري والآباء البيض لن يمس أبداً بدينهم، وطمأنهم بأن أعمالهم ستقتصر على تقديم المعونة للمحتاجين والفقراء، وهكذا وافق شيوخ بعض القبائل على إرسال هؤلاء المبشرين إلى قراهم أو قبائلهم، وهكذا كانت الاتصالات الأولى.

في خطاب ألقاه لافيجري يوم 25 أبريل 1875 في كاتدرائية الجزائر بمناسبة تدشين المصلحة الدينية وسط الجيش الإفريقي، قال ((إن الجزائر هي لبنان إفريقيا)). ويشير هنا إلى الكيفية التي استعملها الفرنسيون لفصل لبنان عن الشام بعد حوادث 1891، ويأمل أن تتوصل فرنسا إلى فصل بلاد القبائل عن بقية الجزائر.

إن المناطق الأولى التي نزل بها الآباء البيض في بلاد القبائل هي قرية تقمونت عزوز ببني دواله - ثاوريرت عبد الله بواضية - آيت لربعاء ببني يني - واغزن ببني منقلات - خراطة بني إسماعيل - جمعة سريج ببني فراوسن - إغيل علي ببني عباس. وتمركز الآباء البيض في هذه المناطق عموماً منذ عام 1872، وتم إنشاء

الوحدات التبشيرية في هذه المناطق. وعلى الرغم من أن عددهم في البداية كان ضئيلاً جداً، إلا أنه قد ارتفع بسرعة، ففي واحة مثلاً وصل في البداية مبشران فقط، وكان يرافقهما رجل يحمل متاعهما، وقدمهما هذا الرجل لسكان واحة بالكلمات التالية: " هذان الرجلان مرابطان مسيحيان، وهما لا يريدان محاربة ديننا ولا عاداتنا، وإنهما يفيداننا جداً، وهما عالمان كبيران، لقد جاء ليضمدا جراحنا، ويداويا مرضانا، ويساعدان فقراءنا، ويعلمان أبناءنا، وهذا كله من أجل حبهم لله".

لقد ارتفع عدد الآباء البيض بسرعة وأصبحوا منتشرين في معظم بلاد القبائل، وحتى يتمكنوا من التغلغل وسط الأهالي جاءوا معهم بالمبشرات كي يتمكن من التعامل مع النساء، وعملوا منذ وصولهم على بناء المدارس والعيادات بل وحتى المستشفيات، مثل مستشفى عين الحمام الذي كان فريداً من نوعه في المنطقة، وتشغل به "الأخوات" الراهبات ويقدمن العلاج المجاني لكل السكان بدون استثناء، وإلى هذا المستشفى كان يأوي بعض الفقراء في الأيام الأخيرة من حياتهم.

المزري الذي آلت إليه البلاد خلق حالة من الفوضى شجعت عددا كبيرا من العائلات على الهجرة إلى الأقطار الشقيقة كتونس ومصر وبلاد الشام... كما أن هذا الوضع هو الذي مهد لثورة 1871 التي برهنت لفرنسا على أن استسلام بلاد جرجرة لم يكن عن اقتناع، وإنما هو استسلام فرضته الأحداث وسوف يزول بزوال هذه الأحداث نفسها.

قائمة المرابطين المشاركين على رأس قبائلهم في صد الحملة الفرنسية عام 1830.

1- بني يرائن: سي محمد السعدي عن زاوية الشيخ وعراب.

2- بني فراوسن: بني خليلي، بني بوشعابيب: سي الحاج صالح ناث داود من صوامع.

3- بني جناد: سي العربي وشريف من ثزروتس، يعلم سيدي منصور.

4- فليسة البحر: الشيخ أعمار أمسون.

5- بني غبري: سي أحمد أومالك من تقرت ناث الحاج.

عن طريق الأعمال الخيرية تمكن الآباء البيض من كسب ثقة الأهالي وحبهم حتى أن بعضهم دخل في دينهم بعد أن أغروهم بمختلف الوعود خاصة ما يتعلق منها بالجانب المادي.

إن أهم عنصر اهتم به المبشرون أكثرهم صغار اليتامى والفقراء، فشكّلوا الملاجئ لهم منذ قدومهم إلى المنطقة، وقد شجع لافيغري رجاله على الاعتناء بالصغار أكثر، إذ يرى أنه عن طريق الأطفال يستأنس الآباء، فتسرب الخبر إلى العائلة ثم القرية. وعن طريق القرية ينتقل إلى كل القبيلة.

بهذه الوسائل المختلفة من القوة العسكرية إلى المعمرين والمبشرين، توصلت فرنسا إلى وضع يدها على بلاد القبائل وضمها إلى باقي أنحاء القطر، لتعرف نفس المصير الذي عرفته هذه المناطق من قبل، وهو الخراب والفقر والحرمان والجوع والاضطهاد إلى غير ذلك من الحالات المكروهة من طرف الإنسانية جمعاء، والتي كان يسميها الفرنسيون "التعمير أو الاستعمار".

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن هذا الوضع

- 12- أقييل - بن عطف - بني بوذرار
 - بني وسيف - بني بوعقاش: سي الجوزي
 من بني بوذرار (الباشاغا بعد 1852).
 13- بني يني: سي الحاج أمين.
 14- بني محمود: سي نورالدين ناث
 زيان.
 15- بني عيسى - معاتقة: مقدم زاوية
 سيدي علي موسى.
 16- قشتولة: مقدم زاوية سيدي عبد
 الرحمن بوقبرين.
 17- عمراوة: سي محمد أمزيان من
 بوخالفة.
 18- فليسة أم اليل: سيدي إسماعيل.

- 6- بني يجار - أسيف الحمام - تغرين:
 الشيخ الموهوب من ثقرت ناث مالك.
 7- زرخفاوة - بني فليك: سي محمد
 أو تغزون.
 8- يلولة - بني زيكي: شيخ زاوية
 وذريس.
 9- ايتورار - إيليتن: سي صغير ولد
 سيدي يحي وعمر.
 10- بني وقنون: سي السعدي من
 الشرفاء.
 11- بني يحي - بني بويوسف - بني
 منقلات. بزعامة مرابطان هما: سي الهادي
 من بني منقلات، وسي محمد وشريف من
 بويوسف.

